طقوس الحداد في زيارة الأربعين «المفهوم والوظائف»

مقاربة انثروبولوجية وظيفية

أ. م. د. نورس إبراهيم عبد الهادي

كلية العلوم الإسلامية – قسم اللغة العربية – جامعة كربلاء

الملخص

تحظى طقوس الحداد السنوية التي يقيمها الشيعة في العراق وخارجه بمناسبة مرور أربعين يوماً على استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بأهمية وتقديس كبيرين على الأصعدة الدينية والسياسية والاجتماعية والنفسية، مما يؤكد على الدور الذي تلعبه هذه الطقوس في توحيد صفوفهم كجماعة واحدة، فضلاً عن أهميتها في بناء هويتهم الثقافية ضد الهجمات والمخاطر الخارجية التي يواجهونها. وقد أفدنا في هذه الدراسة من المنهج الانثروبولوجي ومعطياته المتنوعة فيما يتعلق بطقوس العبور، الدينية منها، وتحديداً الوظائف التي تنهض بها هذه الطقوس، متخذين من الوظيفة الكامنة أساساً انطلقنا منه في تحليلنا لطقس الأربعينية، هذه الوظيفة تتحقق من فعل المنخرطين في الطقس دون وعي أو قصد منهم، وقد تمثلت في زيارة الأربعين وظائف كامنة منها، وظيفة المقدس والتأسيس، وتجييش الذهن الجمعي وتعبئته، وعرضنا ذلك من زاوية نظر سوسيو انثروبولوجية.

Rite of mourning in the visit of the forty-concept، functions

«Functional Anthropological Approach»

Dr. Nawres Ibrahim Abdel Hadi

University of KarbalaIslamic Sciences College - Department of Arabic Language

Abstract

The annual mourning rituals held by Shiites in Iraq and abroad on the occasion of the 40th anniversary of the martyrdom of Imam Hussein (peace be upon him) are of great importance and reverence on the religious، political، social and psychological levels، which emphasizes the role played by these rituals in unifying their ranks as a single group. Building their cultural identity against external attacks and threats they face. In this study، we deduced from the anthropological approach and its various data regarding the rituals of transit، religious، and specifically the functions performed by these rituals، taking from the inherent function basically starting from it in our analysis of the weather of the quadrature. This function is realized by the actions of those involved in the weather Of them، the fourteenth visit was represented in three functions، the sacred function، the foundation، the mobilization and mobilization of the collective mind، and we presented it from a sociological perspective.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله الطيبين الطاهرين.

أما بعد...

فقد اتجهت الدراسات الغربية الحديثة إلى الاهتمام بالمجتمعات والشعوب سواء كانت بدائية أو الشعوب الحديثة والمعاصرة، فضلاً عن دراسة الأجناس والأعراق البشرية والإنسانية من حيث قيمها وثقافتها وما تحمله من عادات وتقاليد، مثل الأساطير والخرافات والطقوس الدينية ونظام تقسم الطبقات وغير ذلك. وقد كانت الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، أو ما يسمى «بالنزعة الثقافية» خير معين للكشف عن تلك العادات والقيم أو الطقوس التي لم تحظ بالاهتمام الكافي من قبل الدارسين، فقد كان ينظر إلى تلك الطقوس وغيرها من العادات والتقاليد على أنها ممارسات فارغة من المعنى ولم تعد ملائمة لهذا العصر الذي شهد تحولات كبيرة على مستوى التقدم العلمي والتكنلولوجيا والاتجاه صوب المادية، ولم يلق بالضوء عليها حتى العشرينات من القرن الحالي.

وبما أن الزيارة الأربعينية التي تقام بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام مع أهل بيته وأصحابه في واقعة الطف بكربلاء سنة ٦١ هـ تمثل وثيقة تاريخية مهمة على الأصعدة السياسية والدينية والنفسية والاجتماعية بالنسبة للشيعة داخل العراق وخارجه، ونشاطاً اجتماعياً شمل رقعة جغرافية واسعة، فهي طقس موغل في القدم يعكس ما ترسخ في الوعي الجمعي للشيعة من رمزية هذا الطقس وأهميته لكونه موجها للسلوك الإنساني وملهماً روحياً لهم وللإنسانية جمعاء، لذا اقتضت الدراسة الإفادة من معطيات هذا الحقل المعرفي وتطبيقه على زيارة الأربعين فيما يتعلق بطقوس العبور، والوظائف التي تنهض بها هذه الطقوس، تحديداً الوظائف الكامنة التي تتخفى خلف ممارسات معتنقي هذه الزيارة دون وعي منهم، فالانثروبولوجيا الثقافية تفسر الظواهر الثقافية من خلال وظيفتها، أي الدور الذي تلعبه هذه الظواهر في الحياة الاجتماعية وقد أفدنا من تنظيرات «روبرت ميرتون» - أحد أبرز أعلام البنيوية الوظيفية بهذا الصدد- كمقاربة لتطبيق هذا المعطى الثقافي على زيارة الأربعين.

وقد انقسمت خطة البحث على محورين تسبقهما مقدمة، الأول: تضمن التعريف بالمفاهيم الواردة في هذا البحث، الطقس والحداد وزيارة الأربعين.

أما المحور الثاني فقد قدمنا له بتوطئة حول مفهوم الوظيفة في علم الانثروبولوجيا مع دراسة لأهم الوظائف الكامنة لزيارة الأربعين، هي وظيفة المقدس وتجييش الذهن الجمعي والتأسيس. أما الخاتمة فقد كانت بأبرز النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة. ومن الله التوفيق.

المحور الأول: المفاهيم

يمكن تعريف أهم المفاهيم الواردة في البحث كالآتي:

١. الطقس

مجموعة من القواعد التي تنتظم بها ممارسات الجماعة، إما من خلال أداء شعائرها التي تعد مقدسة أو من خلال تنظيم أنشطتها الاجتماعية والرمزية وضبطها وفق شعائر منتظمة في الزمان والمكان[١]. وهي بحسب تعريف فيكتور تورنر: (تلك الطقوس التي تعبر عن انتقال شخص أو مجموعة أشخاص من مكانة اجتماعية معينة إلى مكانة اجتماعية أُخرى معينة أيضاً)[٢] فهي تتم عند كل لحظة تتغير فيها مكانة الفرد في المجتمع.

ومن حيث الأصل اللغوي تتأتى لفظة "Rits" في اللاتينية من "Ritus" ويعني مجموع الأنشطة والأفعال المنظمة التي تتخذها جماعة ما خلال احتفالاتها[٣]. كما تترجم كلمة "Rites" بأنها طقوس أو شعائر[٤]. ولا بد من الإشارة الى إن كلمة «طقوس» لا توجد في المعاجم العربية القديمة، وإنما توجد بدلها ألفاظ قريبة تحمل دلالات دينية خاصة مثل «الشعائر» و«المناسك» تشتركان في الدلالة على أفعال العبادة والتقرب إلى الله. وان مصطلح «شعائر» هو التعبير الإسلامي عن مفهوم «الطقوس»، وتعني أفعال العبادة التي يقوم بها المؤمن استجابة لأمر دينيٍّ مقدسٍ وواجبٍ شرعاً مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج[٥]. وفي المعاجم الحديثة يشار بها في الديانة المسيحية إلى النظام الذي تتم به الشعائر والاحتفالات الدينية المقدسة[٦].

إن مجال الطقوس لا يشمل الجوانب الدينية وحسب، بل يتضمن إلى جانب ذلك الأنشطة والممارسات غير الدينية بما في ذلك الأنشطة الاقتصادية والسياسية والرياضية وأفعال التواصل والتبادل التي تتم بين الأفراد في عيشهم اليومي[٧]. وقد أولى «ايرفينغ كوفمان» لطقوس التفاعل في الحياة اليومية اهتماماً أساسياً في مقارباته السوسيولوجية للممارسات البسيطة في حياة الناس اليومية، مبيناً ما يقع فيها من انتظام، وما تختفي من ورائها من رمزية تسير عمليات التواصل الأكثر شيوعاً بين الإفراد في الحياة اليومية. وتكمن فائدة أعمال «كوفمان» في أنه كشف عما وراء «فوضى» الممارسات اليومية من أنشطة منتظمة ينخرط فيها الناس ويتقيدون بها دون أن ينتبهوا إلى ما فيها من انتظام رمزي. كما بين «كوفمان» أن الناس كائنات طقوسية بامتياز ولا يمكنهم العيش معاً إلا بواسطة طقوس تنتظم مبادلاتهم الرمزية المختلفة[٨].

والشعائر والطقوس هي سلوكات فردية أو جماعية تنتقل عبر الأجيال وتستلزم مراعاة عدد من القواعد الدقيقة والثابتة التي ليس من السهولة تغييرها أو تحويرها، تترجمها رموز الجماعة القولية منها والحركية، وتتحقق من خلالها غايات التواصل وتشبع حاجات رمزية أساسية. وبدون هذه القواعد الثابتة تفقد الشعائر والطقوس قيمتها وفاعليتها وخصائصها التراثية[٩]. وترتبط بالسلوك الطقسي جملة من الخاصيات تميزه عن باقي الممارسات الجماعية، أهمها انتظامه وفق تراتيب وضوابط لا يتم التبادل الرمزي إلا بها وإلا فقد التواصل مضمونه الرمزي. وتخضع ممارسة الطقوس إلى جملة من الشعائر والمراسم المعقدة ويجري كل طقس وفق سيناريوهات درامية متكررة تختلف باختلاف

وضعيات التفاعل، والأنظمة الثقافية[١٠].

وقد درس الانثروبولوجيون على مرّ العصور طقوس العبور هذه في أشكالها المتنوعة وفي مجتمعات متعددة، حتى استنبط «فان جيب»[١١] من دراسته لمظاهر هذه الطقوس المختلفة نموذجاً وحيداً. فحسب نظريته يتكون كل طقس عبوراً من ثلاثة أجزاء أو ثلاث مراحل[١٢]. هي المرحلة الانفصالية أو مرحلة الفراق حيث ينفصل الفرد من حالته السابقة مثال ذلك طقس الولادة والوفاة، والمرحلة الكامنة أو الهامشية وهي طور انتقال يقضيه العابر على هامش المجتمع، وهي حالة وسط بين المرحلتين السابقة واللاحقة. وفي هذه المرحلة لا يملك العابر أي مكانة اجتماعية معينة بل يعيش خارج المجتمع. ويؤكد «فيكتور تورنر» وأتباعه أن العابر في هذه الفترة يعيش مرحلة «بين بين»، غير ثابتة وغير معينة بين مرحلتين ثابتتين معينتين، ولذلك نجد ان الرموز المسيطرة على هذا الجزء من الطقس تعبر عن الغموض وعدم الاستقرار كما تشير إلى سلوك غير اجتماعي أو ضد المجتمع[١٣]. ومن أمثلتها طقوس بلوغ الحلم وطقوس التكريس، أما المرحلة الثالثة هي مرحلة الاندماج التي تجرى عندما ينضم الفرد إلى جماعة جديدة، أو إلى فرد آخر ليكون معه جماعة جديدة مثل طقوس الزواج، أو التبني[١٤].

ويرى «رينيه جيرار» أن الطقوس الانتقالية «تشكل أداة عظيمة للحفاظ على النظام الديني والاجتماعي، بضمانها سيطرة الأجيال الغابرة على الأجيال الطالعة»[١٥]. فهي ذات دور مهم لضمان التوازن الاجتماعي في العلاقة بين الفرد والمجتمع.

وقد وظفت هذه النظرية في مجالات شتى، لا سيما أن جينيب دعا القارئ إلى تطبيق المخطط المفاهيمي لطقوس العبور على معطيات حقل دراسته[١٦].

تصنف الطقوس حسب أنواع، منها الطقوس الدينية المرتبطة بالحياة الروحية، ومنها طقوس العبور المتنزلة في الواقع الاجتماعي المعيش والمتصلة بأهم التغيرات البيولوجية أو التحولات المكانية أو الزمنية أو الاجتماعية التي تطرأ على الإنسان طوال حياته[١٧].

استناداً الى ما تقدم فإن الطقوس أو الشعائر الحسينية، هي مجموعة من الأعمال والممارسات التي يقوم بها أتباع أهل البيت عليهم السلام استجابة لما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وأكد عليه الأئمة المعصومون من بعده[١٨]. فكل طقس قام به شيعة أهل البيت أو يقومون به إنما مرجعه سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وهو خاضع للضوابط الشرعية المستقاة من كتاب الله وسنة نبيه. ولقد أكد الأئمة عليهم السلام على كون هذه الشعائر والطقوس خاضعة للموازين والقيم الدينية لكونها ترتبط بشعار من أهم الشعارات الإسلامية ألا وهي الإمامة، وقد جاءت أولى تلك الوصايا على لسان الإمام الحسين عليه السلام حينما أوصى أُخته زينب الكبرى في العاشر من المحرم، ولعل تلك الوصية كانت مرتكزاً للشعائر الفعلية من حيث توجيه الإمام لها، ووضعها بالأطر الشرعية قائلاً لها: «أُخيَّه لا يذهبنَّ بحلمك الشيطان...أُخيَّه إن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله تعالى.. يا أختاه إني أقسم عليك فأبري قسمي، لا تشقّي عليَّ جيباً ولا تخمشي عليّ وجهاً ولا تدعي بالويل والثبور إذا أنا هلكت»[١٩].

يتضح من خلال نص الوصية السابق أن الإمام الحسين عليه السلام قد أرسى اللبنات الأولى لممارسة الشعائر بما ينسجم مع التعاليم الإسلامية والأطر الشرعية فهو لا ينكر على العقيلة زينب عليها السلام تلك العاطفة الطبيعية في إظهار الحزن والجزع لأنها بمصيبة الإمام الحسين تجدد عزاءها بأبيها وأمها وأخيها الإمام الحسن عليهم السلام[٢٠] وأن انبعاث تلك الأشجان، ينسجم مع الطبيعة البشرية، وهو مظهر من مظاهر الرحمة وهي لا تبكي أخاً فقط بل سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته، وسيد شباب أهل الجنة والإمام المعصوم، لذا وجه الإمام الحسين أُخته بالالتزام بالأُطر الشرعية في القيام بالشعائر ببكائها وندبتها حتى تكون منسجمة مع الخط العام[٢١].

٢. الحداد

الحداد[٢٢] أو العزاء طقس يتشكل بسبب الحزن على فقدانٍ فيزيائيٍّ أو روحيٍّ لأشخاص أو أشياء يرتبط معها الإنسان بعلاقات تختلف بحسب طبيعة الصلة بينه وبينها، وبذلك يكون الفقدان هو العنصر الرئيس الذي تتولد عنه عملية الحداد[٢٣]. فهو إذن عزاء ومواساة في الحزن عند حدوث وفاة بصورة عامة[٢٤]. ويرتبط هذا الطقس ارتباطاً وثيقاً بالموت، فلا يوجد حداد إن لم يكن هناك فقدٌ بسبب الموت. لأن الإنسان إن فقد شخصاً فقداناً روحياً لن يكون الحزن المتولد عن هذا الفقد بمقدار الحزن الذي سيتولد عند موته، أي بفقده جسدياً لأن الموت هو رحلة لا عودة منها في المتخيل الجمعي عند مختلف الشعوب والثقافات.

إن طقوس الحداد هي جزء من طقوس العبور، فهي تمر بمراحل مختلفة تؤدي إلى الانفصال عن الواقع جراء حالة الفقد التي تصيب الفرد بموت أحد أفراد عائلته، أو المقربين منه. فالشخص الفاقد لا يرغب بالاعتراف بالواقع الجديد فينفصل عنه ويشعر «باضطراب عقلي هلوسي» لذلك تظهر نزعة قوية لدى الشخص الفاقد إلى ترك الواقع والتمسك بالموضوع المفقود. ثم يدخل الفاقد في سلسلة من العمليات النفسية والاجتماعية يكون لطقس الحداد دور كبير في توجيهها، ذلك أن طقوس الحداد من وجهة نظر نفسية تمثل حالة صحية إيجابية طبيعية في التخلص من آثار خسارة أو فقد شخص عزيز من خلال إعداده نفسياً من أجل العيش ضمن ظروفه الجديدة. ولهذا فإن عملية الحداد تأتي لتوفر وسيلة للإفلات من تأثير الفقدان وهيمنته على نفس الفاقد وأيضاً كوسيلة لاعتياد هذا الفقدان والعودة إلى الحالة الطبيعية السابقة، أي إلى حالة ما قبل الفقدان. ولا تتم هذه العودة إلا عن طريق عملية طويلة ومعقدة من طقوس الحداد. كما ان لها أهمية كبيرة على الصعيد الاجتماعي فهي تجعل الأفراد يشتركون بعلاقات وثيقة وروابط عاطفية حيث يصبح فقدان أحد إفراد الجماعة مسألة مؤثرة تساهم في جمع الأفراد مع بعضهم بعضاً من أجل توثيق علاقاتهم وكذلك ربطهم بحالة عاطفية مشتركة، وهو ما يساعدهم على تحرير مشاعرهم وتحقيق بعض السلوى كنوع من التعويض والمكافأة عن الشخص الذي فقدوه[٢٥]. فضلاً عن أن هذا التواصل الوجداني في طقوس الحداد يساهم كثيراً في بناء المجتمع، لأن الفرد

يرى نفسه جزءاً من هذا المجتمع الذي يشترك في الحزن من أجل تجاوز الخسارة والفقدان. وبعد هذه السلسلة الطويلة من طقوس الحداد يصل الفاقد إلى مرحلة إعادة الاندماج في المجتمع والعودة إلى الواقع من أجل التعايش مع الواقع الجديد.

إن الحداد أو العزاء، ظاهرة دينية – شعائرية لها خصوصية وفرادة في العالمين العربي والإسلامي، تتجلى في حالة حدوث وفاة بصورة عامة. ومن المتعارف عليه أن الدين الإسلامي دعا الإنسان إلى أنْ لا يحزن كثيراً على موت أحبائه، لأنه لاحق بهم عن قريب[٢٦]، وان الحزن على الشخص المفقود يجب أن يكون فترة قصيرة لا تتجاوز أكثر من ثلاثة أيام، يستغلها المعزون بالدعاء والترحم على المفقود من دون ممارسة النياحة أو إظهار الجزع الشديد عليه[٢٧]. غير ان التعزية اتخذت بمرور الزمن معنى وخصوصية، وهي إظهار الحزن والأسى في شهري محرم وصفر من كل عام، وبخاصة في اليوم العاشر من شهر محرم المعروف بيوم عاشوراء، وهو يوم استشهاد الإمام الحسين في كربلاء[٢٨]. إذ يروى عن الإمام جعفر الصادق (٨٠-١٤٨هـ)، «إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عليه السلام، فإنه فيه مأجور»[٢٩]، وهذا يدلل على أنَّ البكاء ومظاهر الجزع الشديد هي من الممارسات المكروهة والتي لا يشجع عليها الإسلام، لكن الأمر يختلف كثيراً في حالة إظهار العزاء على الحسين، فالموت كما يرى علماء الانثروبولوجيا قد يؤثر بشكل مباشر في توازن المجموعة أو المجتمع عموماً، إذا تعلق بشخصية مهمة في المجتمع، والإمام الحسين لم يكن شخصية عادية، فهو ابن بنت نبي الأمة، ولم يكن استشهاده لتحصيل مطلب دنيوي، بل انتصاراً للحق والمبادئ والقيم الإسلامية في الذاكرة الجمعية فقد ارتبطت ثورة الحسين وشخصيته ومبادئه وبطولته وتضحيته، بالإنقاذ والخلاص النهائي وبذلك أصبح الاستشهاد طريق الشفاعة والخلاص، أصبح الإمام الحسين «سفينة النجاة»، لأنه ضحى بنفسه لأجلهم فعاش الشهادة بصبره وإرادته وتضحيته بأهله وأصحابه من أجل إنقاذ المسلمين ونجاتهم من الظلم والطغيان[٣٠]. لذا فإن طقس الحداد على الإمام الحسين لا شك له خصوصيته التي يتمثلها الملايين من الناس في كل بقاع العالم، فهو حداد جماعي لا يرتبط بجوانب فردية أو بقضية معينة، بل يشترك فيه كل الناس بمشاعر يتوحد بها كل من سار على خطى أهل البيت عليهم السلام.

وعلى هذا الأساس كانت طقوس الحداد على الحسين كل عام رمزاً ثورياً اتخذته الجماعات المغلوبة والمظلومة لمواجهة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لا يمكن مواجهتها بصورة طبيعية أو التغلب عليها إلا من خلال ممارسة هذه الطقوس. فضلاً عن ذلك فان طقوس الحداد الشيعية تعد نوعاً من الثقافة الشعبية التي تسعى إلى توظيف الألم سياسياً[٣١].

ويتجسد طقس الحداد بشكل واضح في زيارة الأربعين بزيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء في رحلة مليونية يقطعها الموالون من كل بقاع الأرض. وكما هو معروف أن زيارة القبور تعد من

الممارسات المستحبة عند المسلمين، لا سيما زيارة قبر النبي والصالحين. وقد كانت زيارة القبور هذه من الأمور التي نهى عنها النبي في بادىء الأمر ولكنه سمح بممارستها فيما بعد[٣٢]. ويروي الأمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)، في مسنده عن علي بن أبي طالب عن النبي أنه قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فان في زيارتها عظة وعبرة»[٣٣] فإن زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار[٣٤]. كما ان زيارة القبور والحصول على شفاعة أصحابها غالباً ما تلعب دوراً مؤثراً وفعالاً في ممارسة طقوس زيارة قبور الأنبياء والأولياء والصالحين عند المسلمين بشكل عام، كما يعبر عن ذلك الحديث المروي عن النبي «من زار قبري وجبت له شفاعتي»[٣٥]. فضلاً عن أن المرويات عن أهل البيت تؤكد عظم هذه الزيارة لقبر الإمام الحسين والأجر والثواب الذي يناله الزائر من ممارسته لهذا الطقس الممزوج بالحزن والبكاء واللطم وغيره من مراسيم الحداد كما سنبين لاحقاً.

٣. زيارة الأربعين

زيارة الأربعين، هي زيارة مرقد الإمام الحسين في يوم ٢٠ صفر من التاريخ الهجري الإسلامي من كل عام، أي بعد أربعين يوماً على ذكرى استشهاده. وتأتي خصوصية يوم الأربعين في كربلاء إلى ذكرى رجوع رأس الحسين من الشام إلى العراق ودفنه مع الجسد في كربلاء. ويسمي الشيعة العراقيون يوم الأربعين بيوم (مرد الرأس)[٣٦].

إن اتحاد الرأس بالجسد بعد أربعين يوماً من مقتل الحسين يكون في الحقيقة أساس موضوع هذه الذكرى الأليمة، فضلاً عن زيارة قبر الحسين والتبرك به، الذي أصبح من التقاليد الإسلامية العريقة التي لها أهمية كبيرة في العراق. ويأتي يوم الأربعين بعد يوم عاشوراء في أهميته حيث تقام الاحتفالات بأربعينية الإمام الحسين في كربلاء دون غيرها من المدن، إذ تقوم أعداد كبيرة من الشيعة العراقيين وغير العراقيين بالمشي إلى مرقد الإمام الحسين لغرض زيارته والتبرك به، في رحلة تستغرق عدة أيام أو أسابيع تتخللها بعض الطقوس الخاصة بهذه المناسبة.

وترتبط طقوس الحداد في يوم الأربعين بواقعة تاريخية تقول بأن الإمام علي بن الحسين حين رجع مع قافلة السبايا من الشام إلى العراق، وقبل توجهه إلى المدينة، ذهب توا إلى كربلاء لزيارة قبر أبيه الحسين. وكان وصوله إلى كربلاء بعد أربعين يوماً من استشهاده، فوجدوا جابر الأنصاري (ت٧٨هـ)، أحد كبار الصحابة، ومعه عدد من بني هاشم الذين جاؤوا لزيارة قبر الحسين والترحم عليه[٣٧]. وهذه الحادثة مؤشر تاريخي إلى بداية انطلاق طقوس الحداد على الحسين، حيث يظهر ان البكاء واللطم والحزن كانت العلامة المميزة لممارسة طقوس الحداد على الحسين بعد استشهاده مباشرة، ولكن دون أن يتأكد لنا أن طقوس الزيارة هذه مورست فعلاً بعد أربعين يوماً من استشهاد الحسين[٣٨]. ولا تقتصر الاحتفالات بذكرى استشهاد الإمام الحسين يوم عاشوراء على العراق، وإنما تقام في كثير من الدول العربية والإسلامية لأهمية هذا اليوم في التاريخ

الإسلامي، خاصة في العراق وإيران والهند وتركيا ومصر وسوريا ودول الخليج العربي[٣٩].

ويعد طقس المشي علامة بارزة في طقوس الأربعين، وهي على خطى الرحلة الحسينية التي بدأت حين رفض الإمام الحسين عليه السلام أخذ البيعة ليزيد بن معاوية، ثائراً على الخلافة الفاسدة الغاصبة فرحل عن المدينة إلى مكة ومن ثم رحل صوب العراق، وهذه الرحلة الجهادية حملت في طياتها الكثير من المعاني والقيم السامية على الأصعدة كافة، تمثلت بقول الإمام الحسين عليه السلام: «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت أطلب الإصلاح في امة جدي محمد صلى الله عليه وآله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي محمد، وسيرة أبي علي بن أبي طالب، وسيرة الخلفاء الراشدين»[٤٠].

إن زيارة مرقد الإمام الحسين في كربلاء هو جزء من رحلة مقدسة يرغب الزائر بممارستها بمعزل عن الاستعانة بالوسائل التقليدية في التنقل، لأن المشي يتيح للممارسين استثمار عنصر الحركة الجسدية وتوظيفها لغرض الحصول على التطهير الروحي ونبذ الشهوات والرغبات الجامحة. كما يوفر المشي في طقس الزيارة حالة من المعرفة الجديدة للممارس، فهو في رحلته هذه إنما يكتشف أو يعيد اكتشاف العالم من حوله، مثل اكتشاف أماكن جيدة، وعلاقات جديدة نتيجة لقائه بشخصيات كثيرة خلال هذه الرحلة، فضلاً عن إحساسه بالمشاركة والاندماج مع مجتمعه والذي لا يمكن أن يتحقق إلا خلال رحلته في هذا الطقس[٤١]. هذا وان المشي ليس الطقس الوحيد في زيارة الأربعين، بل ثمة طقوس أخرى تتم ممارستها في هذه المناسبة، مثل استعراض مواكب الظعن، وكذلك استعراض مواكب اللطم وضرب الظهور بالسلاسل الحديدية بالقرب من مرقد الإمام الحسين عليه السلام، فضلاً عن المواكب والمجالس الحسينية وزيارة القبر الشريف وغيرها من الطقوس[٤٢].

المحور الثاني: وظائف الطقوس في زيارة الأربعين

توطئة: مفهوم الوظيفة في علم الانثروبولوجيا

يدل مفهوم الوظيفة، على المساهمة التي تقدمها فعالية جزئية إلى فعالية شاملة. فوظيفة أي عرف مثلاً، هي المساهمة التي يؤديها للحياة الاجتماعية كلها، ووظيفة أي نظام اجتماعي، هي مساهمته في حياة المجتمع ككل. وفكرة الوظيفة وثيقة الصلة بفكرة البناء الاجتماعي[٤٣].

وتعد الوظيفية تياراً علمياً ومنهجياً قد نمت وتطورت في اتجاهات مختلفة، من بينها الاتجاه البيولوجي، والاتجاه الانثروبولوجي الثقافي[٤٤]. ويعد «مالينوفيسكي وراد كليف براون» من رواد الوظيفية أو المذهب الوظيفي، وقد ظهر هذا المصطلح في وقت مبكر جداً في سياق بعض الكتابات العلمية. ثم جاء «إميل دوركايم» عام ١٨٩٥ فوضع أول تحديد علمي منظم لهذا المفهوم، ومؤدى تعريفه هذا أن وظيفة النظام الاجتماعي هي التوافق بينها وبين احتياجات الكائن العضوي الاجتماعي[٤٥].

إن الانثروبولوجيا الثقافية تفسر الظواهر الثقافية من خلال وظيفتها؛ «من خلال كيفية ارتباطها

بعضها ببعض داخل النسق الثقافي الواحد وكيفية ارتباط هذا النسق بالبيئة الطبيعية»[٤٦]. ويوضح «راد كليف براون» مفهومه للوظيفة على النحو الآتي: «إن وظيفة أي نشاط متواتر هو الدور الذي يلعبه هذا النشاط في الحياة الاجتماعية ككل. ومن ثم المساهمة في الحفاظ على استمرار البناء.. فمدلول الوظيفة في هذا التعريف هو المساهمة التي يقدمها نشاط جزئي للنشاط الكلي الذي هو جزء منه»[٤٧].

الوظيفية على هذا الأساس، هي النظرية التي تقول بوجوب دراسة الظواهر الثقافية من حيث الوظيفة التي تؤديها[٤٨]. ومن التعريفات الأخرى تعريف «مالينوفسكي» الذي يقول إن الوظيفة «هي نظرية ماهية الطبيعة البشرية، وكيفية عمل المؤسسات الإنسانية، وما تفعله الثقافة من أجل الإنسان في جميع مراحل التطور»[٤٩].. وقد شرح «موس» مفهوم الوظيفة عندما صاغ نظريته عن «الظواهر الاجتماعية الكلية» حيث يقول إن كل شيء في المجتمع هو – بالدرجة الأولى– وظيفة، ويؤدي وظيفة، وكذلك عندما أكد أنه ليست هناك ظاهرة اجتماعية لا تكون جزءاً لا يتجزأ من الكل الاجتماعي[٥٠].

وقد عرف هذا الاتجاه بالاتجاه البنائي الوظيفي، وقد كان «راد كليف براون» باحثاً وظيفياً وبنائياً، عرف الوظيفة في علاقتها بالبناء، والبناء هو لزيم الوظيفة[٥١]. في حين تفهم نظرية «مالينوفسكي» عن الوظيفية في ضوء الاحتياجات، إذ يرى أن الوظيفة تعني دائماً إشباع احتياج معين[٥٢].

يشير أنصار هذا الاتجاه إلى العلاقة بين مفهومي البناء والوظيفة، فالبناء هو العلاقات النمطية الثابتة نسبيًا للوحدات الاجتماعية، بينما الوظيفة هي إي نشاط اجتماعي يقدم للبناء الاجتماعي وأجزائه الثابتة. أي أن البناء نسق من الأنماط المستمرة نسبياً. والوظيفة هي العملية الدينامية في ذلك البناء[٥٣].

وقد ظهر هذا الاتجاه في الفكر الاجتماعي بعد استعارة بعض المفهومات البيولوجية. فاستخدام الاتجاهات البنائية يكون بهدف تفسير الدور والوظيفة الاجتماعية التي تقوم بها ظاهرة أو نظام معين في البناء أو النسق الكلي. وقد أسهم «إميل دوركايم» في تأسيس هذا الاتجاه، إذ حدد خواصاً معينة للوقائع الاجتماعية كالشعائر، والجريمة، والعقاب. ويقرر أن البحث عن سبب الواقعة الاجتماعية يكمن في الوقائع الاجتماعية الأخرى[٥٤].

ومن بين أنصار هذا الاتجاه «تالكوت بارسونز»، و«روبرت ميرتون» الذي ميّز بين الوظيفة الظاهرة، والوظيفة الكامنة[٥٥]، ويعرف «ميرتون» الوظيفة قائلاً: «أن الوظائف هي تلك النتائج والآثار الملاحظة التي تعمل من أجل تكيف أو توافق نسق معين»[٥٦]. وهي كذلك بنظره: الآثار الموضوعية للفعل الاجتماعي وما لها من قدرة في تكييف الناس لمستجدات الفعل[٥٧].

وقد اهتم «ميرتون» بمفهومي الوظائف الظاهرة، والوظائف الكامنة، فالأولى تشير إلى النتائج الموضوعية التي تحدثها سمة اجتماعية أو ثقافية معينة، تلك النتائج التي تفرض على الأفراد تبنيها والتكيف معها، فهي إذن نتائج متوقعة، أما الكامنة

فتشير إلى النتائج غير المقصودة وغير المتوقعة[٥٨]. وكمثال لذلك: الرقص الجماعي عند بعض القبائل البدائية معتقدين أنها تجلب المطر، إذ أن الوظيفة الظاهرة لهذا الرقص الجمعي هو جلب المطر، لكن الوظيفة المستترة (الكامنة)، هي التضامن الاجتماعي بين أفراد القبيلة بسبب خوفهم من الجفاف والمجاعة، كذلك إيقاد الشموع بقصد الاستهلاك الظاهري حيث أن وظيفتها الظاهرة هي جلب الإنارة أو الضوء لكن الوظيفة المستترة هي الجانب الجمالي وتقليد بعض السلوكية الارستقراطية والتعبير عن المكانة الاقتصادية للأسرة، ولقد استعار ميرتون شطري المصطلح «الظاهر والباطن» من «سيغموند فرويد وفرانسيس بيكون» عندما تكلما عن الصورة الظاهرية والباطنية لسلوك الإنسان وكان هدف ميرتون من ذلك الشطر، بناء جسرٍ مواصلٍ بين النظرية والبحث الامبريقي[٥٩].

وسنتبنى في هذا البحث مفهوم «ميرتون» عن الوظيفة الكامنة، فالشعائر الحسينية على اعتبارها طقساً دينياً اجتماعياً تنهض بجملة من الوظائف، وما يهمنا في الظاهرة الطقوسية لزيارة الأربعين هي وظائفها الكامنة التي تتحقق في حياة ممارسيها دون وعي سابق منهم. وسنعرض لذلك من زاوية نظر سوسيوانثروبولوجية أساساً.

١. المقدس بين التمثلات والممارسات

يستمد الطقس أهميته وفعاليته أساساً من كونه يرتبط بالقداسة والدين، لقد كانت الطقوس ولا تزال في جانب كبير منها، غير مفصولة عن الدين وعن المقدس. فالفعل الديني فعل طقوسي بكل امتياز، بل لن يتخذ الفعل الديني فعاليته إلا بواسطة الطقس الذي يولد الشحنة الرمزية ويملؤه بها[٦٠]. فالمعتقدات الدينية كما يقول «إميل دوركايم» في شكلها البسيط والمعقد تقوم على تمييز جوهري بين ما هو مقدس وما هو مدنس[٦١]. فالمقدس يتضمن أشياء يجري عزلها وتحاط بشتى أنواع التحريم، وكل شيء ما عدا ذلك فهو مدنس، بمعنى أي شيء ليس مقدساً ضمن المجتمع، مثل جوانب الحياة اليومية العامة، النفعية، الدنيوية.

وبما أن زيارة الأربعين تعد طقساً دينياً مقدساً، لأنها تدور حول شخصية دينية ممثلة بالأمام الحسين عليه السلام سبط النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، لذا فمن الطبيعي ان الجانب الروحي والديني للجماعات المنخرطة في هذه الطقس يتشكل على مستويين: مستوى التمثلات والتصورات الماثلة في وعي الناس والمتصلة بالأشياء المقدسة، والمستوى الآخر، مستوى الممارسات التي تظهر في أفعال الناس والتي تترجم عن تلك المعتقدات الماثلة في الوعي الجماعي والفردي من خلال الطقوس وغيرها من الممارسات. فعلى صعيد المستوى الأول، أي مستوى التمثلات والتصورات الذهنية، لا تقتصر هذه الزيارة باعتبارها طقساً مقدساً على المكانة الدينية التي يحتلها الإمام الحسين في الذاكرة الجمعية من كونه ابن بنت المصطفى وسليل النبوة، بل تتمثل في ثورته على النظام الفاسد، ومن اجل تطبيق الشريعة الإسلامية حيث عرّض نفسه وأهل بيته وأصحابه للقتل من أجل هذا الهدف المقدس، وقد تمثل ذلك

بقول الإمام الحسين(عليه السلام): «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي محمد(صلى الله عليه وآله) أريد أن آمر بالمعروف وانهي عن المنكر، وأسير بسيرة جدي محمد، وسيرة أبي علي بن أبي طالب، وسيرة الخلفاء الراشدين»[٦٢]. إذ لم يكن خروج الإمام الحسين(عليه السلام) ورحلته التي انتهت باستشهاده رحلة دنيوية لطلب منصب أو سيادة، وإنما كانت رحلة جهادية ضد أُمة البغي والفساد، فضلاً عن كونها رحلة إصلاحية في جسد الأمة الذي كان يقع تحت نير الظلم والفساد. ولم يقتصر الأمر على هذا وحسب، بل مثلت زيارة الإمام في نفوس الموالين لأهل البيت منهلاً لا ينضب للأجر والثواب وحيازة الفضل في الدنيا والآخر. قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين علي(عليه السلام): «يا أبا الحسن إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعاً من الجنة، وعرصة من عرصاتها، وان الله جعل قلوب نجباء خلقه وصفوته من عباده تحن إليكم وتحتمل المذلة والأذى فيكم، فيعمرون قبوركم ويكثرون زيارتها تقرباً منهم إلى الله ومودة منهم لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي والواردون حوضي، وهم زواري وجيراني غداً في الجنة، يا علي، من عمّر قبوركم وتعاهدها فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس»[٦٣]. فالتقرب إلى الله ونيل مودة الرسول الأكرم وشفاعته هي من نصيب زائر قبر الحسين(عليه السلام)، فمن الطبيعي أن يتمثل المسلمون قول النبي(صلى الله عليه وآله) لأنه صادر عن شخصية مقدسة في الذاكرة الجمعية للمسلمين، تحث على فعل فيه جزيل الخير والثواب، ومصدر هذا الأجر والثواب هو زيارة قبر الإمام الحسين(عليه السلام). ولا تعد زيارة قبر الإمام الحسين واجبة لكل من أقرّ للحسين بالإمامة، إنما كانت أيضاً في أحد معانيها، نصرة للحسين(عليه السلام) بل هي حق من حقوق رسول الله(صلى الله عليه وآله) على الأمة، وحق من حقوق الله تعالى أيضاً. فعن أبي حمزة الثمالي أنه قال: «سألت علي بن الحسين(عليه السلام) عن زيارة الحسين(عليه السلام) فقال: زره كل يوم، فان لم تقدر فكل جمعة، فان لم تقدر فكل شهر، فمن لم يزره فقد استخف بحق رسول الله(صلى الله عليه وآله)»[٦٤].

كما إن الإمام الصادق(عليه السلام) قرن سؤال شيعته عن زيارة الإمام الحسين(عليه السلام) من بيان فضل الزيارة «سأل الإمام الصادق(عليه السلام) معاوية بن عمار قال: كم حججت؟ قال: تسع عشرة حجة، قال حج أخرى تكون كمن زار قبر الحسين(عليه السلام) فقال معاوية بن عمار: فقلت لأبي عبد الله(عليه السلام) وإن من زار قبر الحسين له من الأجر كمن حج عشرين حجة؟ قال الإمام: نعم، والله إن زائر قبر الحسين له من الأجر كمن حج عشرين، وعشرين حجة، حتى عد خمس مرات، فأنا لا أزال أزوره، في كل سنة ثلاث مرات منذ سمعت أبا عبد الله يقول ذلك»[٦٥]. كما روي عن عبد الله بن عبيد الانباري[٦٦]، قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق(عليه السلام): جعلت فداك إنه ليس كل سنة يتهيأ لي ما أخرج به إلى الحج؟ فقال: إذا أردت الحج ولم يتهيأ لك فائتِ الحسين(عليه السلام)..»[٦٧].

كما أشار العلوي عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب لما سُئل عن زيارة قبر الحسين(عليه السلام) فقال: «من زار قبر الحسين(عليه السلام) لا يريد إلا الله، فتفطرت قدماه في ذهابه إليه كان كمن تفطرت قدماه في سبيل الله»[٦٨]. يشير النص بوضوح إلى أهمية

زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام فتفطر القدم من المشي يدل دلالة واضحة على رحلة يقطعها الزائر مشياً على الإقدام ولمسافات طويلة، فهي رحلة جهادية أجرها كبير عند الله.

لقد أثّرت تلك الدعوات في زرع ثقافة الزيارة عند شيعة أهل البيت عليهم السلام وقد بات الشيعة، يتوجهون لزيارة الإمام الحسين عليه السلام مما دفع البعض منهم أن يسأل الأئمة عن كيفية الزيارة، وزمانها، وما هي الأفعال المندوبة، وعن فضلها، وفي حال الخوف من السلطان، فقد سأل الإمام الصادق عليه السلام أحدُ أصحابه كيف يصنع وكيف يقول إذا أراد زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام فقال له الإمام الصادق عليه السلام: «اغتسل على شاطئ الفرات، وتلبس الثياب الطاهرة، ثم امش حافياً فإنه في حرم من حرم الله تعالى، وحرم رسول الله صلى الله عليه وآله..»[٦٩]. كما جعل الإمام العسكري زيارة الإمام الحسين علامة من علامات المؤمن: «علامات المؤمن خمس: صلاة إحدى وخمسين، وزيارة الأربعين والتختم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم»[٧٠].

وقد بيّن الأئمة الأطهار ثواب من أتى قبر الإمام الحسين راكباً وماشياً[٧١]، وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق حينما قال: «من خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين بن علي عليه السلام إن كان راكباً كتب الله له بكل حافر حسنة وحطَّ بها عنه سيئة»[٧٢]. وقوله عليه السلام: «ومن أتى قبر الحسين عليه السلام في سفينة فكُفئت بهم سفينتهم نادى منادٍ من السماء طبتم وطابت لكم الجنة»[٧٣]. وهذا يعني أن الرحلة التي كان يقطعها الزائر لقبر الإمام الحسين عليه السلام كانت في ذلك الوقت إما ركوباً أو مشياً على الأقدام أو رحلة عن طريق البحر بواسطة السفينة.

ويظهر ان الرحلة بوسيلة المشي على القدمين ولمسافات طويلة وصولاً إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام كانت من الوسائل التي أكد عليها أئمة آل البيت عليهم السلام لعظم ثوابها وهذا ما ورد على لسان الإمام الباقر عليه السلام قوله: «من خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين بن علي عليهما السلام إن كان ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة..»[٧٤].

لقد عكست تلك المرويات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام عظم هذه الزيارة وأجرها وثوابها، لذلك فإن ما تجسد في المتخيل الجمعي للمسلمين عامة والشيعة خاصة من تصورات وتمثلات مقدسة تتصل بهذه الشخصية وهذا الطقس انعكس على مستوى الممارسات والأفعال في طقس الأربعينية من خلال مراسيم العزاء ورحلة السير الطويلة التي يقطعها آلاف من الزائرين وغيرها من الطقوس ولذلك تستحيل الطقوس الدينية المتعلقة بالإمام الحسين إلى وسيلة للاتصال بالمقدس، والى فعالية رمزية يتم بواسطتها الدخول في حالة ذهنية جماعية تتسم بالقداسة، وتتجلى عندما تنخرط الجماعة في ممارسة الشعائر والأنشطة المتعلقة بها من مشي وصلوات ومواكب ومراسيم حداد وغير ذلك في رحاب مكان مقدس، إذ اكتسبت كربلاء تلك القداسة كونها شهدت ذلك الحدث التاريخي، وضمت قبور شهداء تلك الواقعة، فضلاً عن قدسية المكان التي أضفت طابعاً روحانياً لتلك الطقوس وجعل من كربلاء مدينة مقدسة يقصدها الملايين كل عام من كل بقاع الأرض.

يصبح طقس الأربعينية بهذا المعنى وسيلة لتنشيط حالات الوعي الجمعي، وبواسطة هذه الطقوس الدينية المقدسة، تتم الإحالات الرمزية، وقد عبر «إيريك فروم» عن ذلك قائلاً: «الطقس في نهاية الأمر تعبير رمزي عن أفكار ومشاعر تتحقق بواسطة الفعل»(٧٥). بحيث ان فهم معاني الممارسات الطقوسية ودلالاتها من خلال عمليات من الإحالة الرمزية التي تضرب في عمق المتخيل الجماعي والديني وتحيل إلى أعماق اللاوعي الجمعي و«اركتيباته» الكامنة حسب تعبير «كارل غوستاف يونغ»(٧٦).

لقد تمثلت الذاكرة الجمعية على مر العصور هذا الفضل وتلك المزايا لزيارة الأربعين وأعادت إنتاجها كل عام على مستوى التمثلات والممارسات وتناقلتها عبر الأجيال وصولاً لعصرنا الراهن.

٢. تجييش الذهن الجمعي وتعبئته

تحتاج المجتمعات مهما كانت بدائية أو متطورة إلى تقوية وعيها الجمعي وتثبيته خلال مناسبات محددة يتجمع فيها الناس في ظلال طقس يوحدهم ويقوي الإحساس بعمق انتمائهم وهويتهم التي قد لا يجدوها خارج هذا الطقس بحكم كونهم أفراداً يعيشون لذواتهم الفردية منشغلين بمطالب الحياة وبالروتين اليومي. لكن انتماءهم إلى تلك الطقوس - خاصة الدينية منها- بشكل جماعي يولد فيهم الإحساس بالحماسة والغليان والعواطف الجياشة المصاحبة لتلك الطقوس. وعلى صعيد العالم الإسلامي تتجسد هكذا حالات من التجمع وما يرافقها من الهياج والحماس في بعض الممارسات الدينية الجماعية، مثل الحج وصلاة الجمعة والعاشر من محرم وزيارة الأربعين.

إن زيارة الأربعين باعتبارها طقساً يتجمع فيه ملايين الناس من مختلف بقاع الأرض تساهم في تقوية الوعي الجمعي للمنخرطين في هذا الطقس، فضلاً عن ذلك تدعم انتماء الأفراد إلى النظام الأخلاقي الذي تمثله - أخلاق أهل البيت عليهم السلام- ويتمثل ذلك من خلال الشعور بالحماسة وحالة الغليان والعواطف الجياشة المصاحبة لهذا النشاط الديني الجماعي.

يتولد الشعور بالحماسة وحالة الغليان المصاحبة لهذا الطقس من جانب أساسي، هو مأساة استشهاد الحسين عليه السلام، وفي اجتماع آلاف من الناس وتوحدهم في ممارسة هذه الطقوس، أي أن طقس الزيارة قد وحد الملايين من الناس وجعلهم ينخرطون بشكل جماعي داخل هذا الطقس الديني بخلاف ما كانوا عليه قبل الدخول فيه، فخارج هذا الطقس يعيشون كأفراد لذواتهم الفردية، لكن بمجرد دخولهم في الأنشطة الاحتفالية للطقوس الجماعية الدينية، فإن الروح الجماعية تتقد ويعاد تنشيط الضمير والحس الجمعي، وينتقل الأفراد من كونهم أفراداً (منفردين) إلى أفراد (جماعيين). وقد أكد «إيميل دوركايم» ذلك بقوله: «يتشكل لدى الأفراد من خلال حضورهم الجماعي ضرب من الشعور الجمعي الجياش لا يدركونه وهم في حالتهم الفردية»(٧٧). فالأفراد خارج الطقس ينشغلون بالحياة ومتطلباتها ويدخلون في روتين يومي، لكن وحدها الممارسات الطقوسية

الجماعية التي ستجيشهم وتملأ الفراغ الذي يغرقون فيه وتدخلهم في الحالة الجماعية، بحيث يشعر الفرد داخل هذا التجمع الكبير بأنه كائن أكبر من كونه واحد ومفرد، ويحيي الاحتفال الجماعي قوة خلاقة تجعله يتجاوز حدود فرديته ويشعر بالزمن والفضاء بشكل يختلف عما يشعر به في حال فرديته. فثمة حرارة وعاطفة يولدها الفعل الطقوسي الجماعي تدخل الأفراد في حالة من الجيشان وتوحد حسهم الجمعي كما تدخلهم في زمنية خاصة(٧٨). وهكذا تثبت زيارة الأربعين أن في عمق الذات الفردية ذاتاً جماعية كامنة تجعلها هذه الممارسات الطقوسية الخلاقة تستفيق.

إن مأساة كربلاء مجسدة بالإمام الحسين عليه السلام ومقتله وأهل بيته في يوم الطف ساهمت في اتقاد المشاعر وهياجها بشكل جمعي فضلاً عن توحيد صفوف ملايين الناس من مختلف البلدان والقوميات في هذا الطقس، فلم يعد هناك فرق بين عراقي أو إيراني أو هندي، أو تركي..الخ داخل حدود هذا الطقس، بل ساهم هذا الطقس المقدس في توحيد صفوف الزوار وفي تعبئة الوعي الجمعي لهم وإثارته، وإحساسهم بهويتهم التي لم يكونوا سيستشعرونها خارج هذا الطقس بشكل انفرادي من خلال تعارف هذه الملايين فيما بينها وإقامة علاقات اجتماعية وثقافية. فقد اختفت الحواجز الجغرافية، وكذلك الفوارق الطبقية الاجتماعية.

إن الانخراط في هذه الممارسة الطقوسية المقدسة يعد نوعاً من «العلاج التطهيري». ذلك أن هذه الممارسات الطقوسية إنما تتخذ وسيلة ناجعة لخوض تجربة وجدانية جماعية خاصة يلوذ إليها الأفراد لملء فراغ ناجم عن خلل في تجربتهم الجماعية ولذلك تحقق زيارة الأربعين على اعتبارها فعلاً تواصلياً يتم من خلاله إحياء تجربة مقدسة تدرك دلالتها ضمن المنظومة المعتقدية الخاصة بالجماعة ضرباً من التوازن الوجداني الذي يمكن أن يفتقدوه في تجربتهم وحياتهم الجماعية اليومية.

إن الساحات العامة أصبحت ساحات للاحتفال الطقوسي، حيث المواكب وموائد الطعام والتراتيل الدينية والمسرح الحسيني والأهازيج الشعبية الجماعية، فضلاً عن ذلك تتحول أجساد الزائرين إلى نصوص / أجساد مجللة بالرموز، اللون الأسود الموحد والأعلام الخضر والرايات الحسينية. وبلا شك فإن هذه الممارسات الطقوسية الاحتفالية الجماعية لها دورها الموجه للمجتمعات الحديثة، يقول «دوركايم» بهذا الصدد: «سيأتي يوم تعرف فيه مجتمعاتنا لحظات من الفوران الخلاقة تنبثق من خلالها أفكار جديدة وتتبلور صيغ صالحة خلال الزمن لتكون موجها للإنسانية»(٧٩).

٣. التأسيس المتخيل للمجتمع

سبق وبيّنا أن طقوس التحول أو العبور تتضمن احتفالا بتحول نوعي يقع في حياة الإفراد والجماعات، وقد يتم طقس العبور احتفالاً باكتمال حصول تغييرات بيولوجية في حياة الأفراد، أو عن تحولات تقع في مكانة الأفراد. وهذا يعني أن الطقوس التي تقام للانتقال من مرحلة إلى أخرى أو من مكانة إلى أخرى تكون غايتها التأسيس الرمزي(٨٠)، وخلال ذلك تجري عمليات رمزية

تترجمها الأقوال ومجموعة من الممارسات لكنها فائقة الدلالة لكونها بروتكولات لازمة للطقس، فثمة شرعية يتم إضفاؤها واعتراف رمزي يتم التأسيس له وتمريره ضمنياً لجعل الفواصل والامتيازات تحظى بالشرعية والاعتراف[٨١]. وقد يتم فعل التأسيس هذا عن طريق التكرار، فمن أهم خصائص الطقوس أنها تميل إلى التكرار والاستمرارية، من أجل ديمومة الطقس وإعادته في كل مناسبة كما كان في الماضي[٨٢]. وعلى هذا الأساس فالطقوس سلوك نمطي متكرر[٨٣]. فالطقوس لها آلية هي «الاسترجاع الجماعي» الذي يعيد إلى الذاكرة أصول الدين والقيم والأساطير وهي بهذا المعنى أدوات جماعية للتذكير بما جرى بالماضي والحفاظ عليها من الضياع، وكذلك على القيم والعادات والتقاليد الموروثة المرتبطة بها وهو ما يفسر بقاء واستمرار الطقوس وديمومتها عبر الأجيال والعصور[٨٤]. وينطبق هذا الأمر على الطقوس الدينية كزيارة الأربعين ففعل التأسيس يتحقق في هذه الزيارة من خلال تكرار الطقوس الدينية المرافقة لها، فتكرار الإتيان بتلك الشعائر بزمن معين هو مرة في كل عام حسب هذه الطقوس يساهم في ترسيخ المعتقد على مستوى التصورات والممارسات.

إن هذا التكرار السنوي لطقوس الأربعين له دور كبير في تنشئة الصغار على تلك الطقوس وأهميتها على الصعيد الاجتماعي والديني معاً، على شاكلة ما يسميه «بيار بورديو» التطبع، لأن الاستعدادات والطباع تترسخ تباعاً عبر عمليات التكرار والتطويع المستمر، خاصة تلك المصحوبة بالشحنات الروحية والوجدانية، فتكرار الطقس بالعمليات التي تصاحبه إنما يدعم عمليات التنشئة والاكتساب الثقافي، ويساهم في ترسيخ القناعات والميول في الجسد والذهن معاً[٨٥]. وهكذا تشهد كربلاء تكرار هذا الطقس في الزمان والمكان ذاته، فكربلاء تعد موقعاً رئيساً لاستذكار واقعة الطف، وإعادة إحيائها والتطابق مع أحداثها بصورة مادية ومعنوية، لذا فهي تعد رمزاً من الرموز الثقافية والدينية التي يستشعر المنخرط في الطقس انه يرتد فيها الماضي لاستحياء تلك الواقعة التاريخية بالصوت والصورة، وبهذا تتيح طقوس العبور «للمنتسبين الجدد تحصيل خبرة تمهيدية بما ينتظرهم في حال انتهكوا المحظورات وأهملوا الطقوس وأعرضوا عن الديني، وبفضل هذه الطقوس تتشبع الأجيال المتعاقبة بالاحترام لأعمال المقدس الرهيبة فتشارك في الحياة الدينية بالتقوى الواجبة وتجند قواها لترسيخ النظام الثقافي»[٨٦].

إن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن شخصية دينية ورمزاً ثورياً وحسب، بل هو حامل للقيم والمبادئ الإسلامية التي توارثها كونه سليل النبوة. وعلى هذا الأساس، فإن تكرار طقس الأربعين هو ليس تأسيساً لنضال بطولي بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، إنما هو دعم للقيم والمبادئ الإسلامية الحقّة الذي يساهم هذا الطقس مراراً وتكراراً في زرعها عبر الأجيال في كل عام مما يمدُّ الجيل الواعد بشحنات رمزية ذهنية تتجسد في ممارسات أخلاقية نبيلة تعم المجتمع. إذ لم تكن الشعائر الحسينية إلا قضية إسلامية أصيلة مثلت فريضة من فرائض الإسلام، حيث جسدت تلك الشعائر الإخلاص والحب والتفاني للرسالة

الإلهية لما جسده الإمام الحسين عليه السلام من مقام الإمامة الإلهية في الأمة، وإن سر بقاء الشعائر إنها مستمرة في خط الرسالة التي اختط منهجها رسول الله صلى الله عليه وآله عندما خاطب الأمة «حسين مني وانا من حسين»[٨٧].

وثمة قضية أساسية تعانيها مجتمعاتنا في الوقت الراهن بسبب طغيان منظومة البرمجيات، ووسائل الاتصال، واتجاه المجتمعات صوب النفعية والمادية في العلاقات الاجتماعية، يرافقها تدهور كبير في منظومة القيم والمبادئ الإسلامية بفعل العولمة واجتياح ثقافة الآخر المضادة لمجتمعاتنا العربية ومنها المجتمع العراقي، مما قد يولد في الذهن بان الأنشطة الطقوسية في مجتمعاتنا الحديثة أصبحت ممارسات مفرغة من المعنى ولا ضرورة لها في ضوء سيادة النزعة العقلانية والربح المادي. إلا ان أهمية الطقوس، خاصة الدينية منها في الوقت الحالي تكمن بكونها محطات عبور إلى الماضي، إذ يرتبط حاضر المخرطين في الطقس بماضيهم، إي الحقيقي بالمتخيل وتستفيق الذاكرة ويشحن الوجدان الجمعي، وهو ما يجعل ممارسة الطقوس والاحتفالات التي تصاحبها بوصفها محطات يتزود فيها النفس بشحنات المعنى وتكسر الرتابة التي يعيشون بها والزمن اليومي المعتاد[٨٨] وتسترد القيم والمبادئ ألقها وروحها في نفوس المنخرطين من خلال إحياء الأصول والعود الأبدي لها كما يقول «ميرسيا الياد»[٨٩]. وهذا ما حققته زيارة الأربعين وتحققه كل عام، فالمجتمع العراقي يعيش حالة من فوضى القيم واضطرابها في نفوس الصغار والكبار على حد سواء، وبلا شك فان الشباب الواعد هم القدوة والنخبة في هذا المجتمع، فان العلاج التطهيري الذي يتطلبه هذا الجيل هو بإحياء هذه الممارسة الدينية التي تقوم بإيقاظ وصحوة القيم والمبادئ كل عام مما يشكل موجة قوية تقف بوجه هذه التيارات المضادة للقيم والمبادئ والخلق الإسلامي.

إن العمليات التي يتم فيها تناول الطقوس هي ذات وظيفة مزدوجة، فهي أولاً تعيد تنشيط التصورات الدينية، وتغذي الإحساس بالعودة إلى الجذور الأصلية ثانياً. ويعتقد علماء الاجتماع، بأنه من الممكن رد مثل هذه الحالات إلى القلق والانفصام الاجتماعي، مثلما يمكن ردها إلى التناقضات التي يعاني منها أفراد مجتمع سريع التغير، كان قد فقد شيئاً من توازنه، بسبب الصراع بين قيم الماضي الراكدة وقيم الحاضر المتحركة؛ بمعنى آخر، من الممكن ردها إلى محاولات حماية الذات من الذوبان والحفاظ عليها من التغيرات الاجتماعية وحالات القلق والتوتر والاستلاب الناتجة عنها والتي لا يمكن للإنسان العادي التفريج عنها[٩٠]. من هنا تظهر الوظيفة الاجتماعية – النفسية للطقوس، استرداد الهوية المفقودة بفعل التغييرات التي مست المجتمع.

الخاتمة

تمثل الطقوس جانباً مهماً من تراث الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم تضرب بعيداً في عمق التاريخ تعكس ما يدور في الذاكرة الجمعية من ممارسات تمس الجانب الروحي خاصة لتلك الجماعات مما يمثل عودة إلى الجذور والأصول الأولى للإنسان بمختلف تجلياته عند الشعوب البدائية أو المتحضرة على حد سواء.

بالرغم من التطور العلمي والتكنولوجي وتقدم

الأمم، يبقى للطقس سحره الخاص الذي يمارسه على نفوس المعتنقين، بخلاف من يرى أن هذه الطقوس ممارسات فارغة من المعنى ولا دور لها في مجتمعاتنا الحديثة، مما دفع الدارسين إلى الحفر عميقاً في الدور الذي تنهض به هذه الطقوس أو الشعائر في المتخيل الجمعي عند مختلف الأمم أو الشعوب، لذا اتجهت الدراسات التي اختصت بعلم الإنسان (الانثروبولوجيا) إلى الاهتمام بتلك الممارسات ومحاولة الكشف عن سر ديمومتها وبقائها عبر العصور والأجيال، وما تمارسه من دور على الصعيد الاجتماعي والديني والنفسي للجماعات التي تمارسها مما يساهم في الكشف عن مزيد من مجاهل تلك الشعوب أو المجتمعات.

تعكس الطقوس الدينية نظرة المجتمعات إلى الجانب المقدس منها، إذ تحاط بهالة من القداسة عن طريق مجموعة من الشعائر التي تعزل ذلك المقدس عن المدنس أو الدنيوي، وهذا ما اتضح في زيارة الأربعين باعتبارها طقساً دينياً مقدساً موغلاً في القدم في نفوس الشيعة، أحاطها المعتنقون بطقوس ومراسيم جعلها تحظى بأهمية وتقديس بالغين على مستوى التصورات والممارسات، استقطبت الملايين كل عام من كل بقاع الأرض.

إن زيارة الأربعين ظاهرة طقوسية تضرب بعيداً في المتخيل الجمعي عن الشيعة في العراق وخارجه، كونها تعكس تراثهم الديني وحبهم لآل البيت عليهم السلام، فضلاً عما لهذه الزيارة من أبعاد اجتماعية وسياسية ونفسية كان لها دور في توجيه النشاط الإنساني على مر العصور.

يمثل الموت من وجهة نظر انثروبولوجية الحلقة الأخيرة من حلقات طقوس العبور، وقد يؤدي في أحيان كثيرة إلى اختلال أو اضطراب إذا تعلق بشخصية مهمة في المجتمع. من هنا كانت مراسيم الحداد على الإمام الحسين عليه السلام تحظى بخصوصية وفرادة، لأن الإمام الحسين لم يكن شخصية عادية، فهو فضلاً عن كونه سليل النبوة، كان استشهاده عليه السلام نصرة لقيم الحق والعدل ضد امة البغي والظلم فلم يكن مطلبه دنيوياً، بل ضحى بنفسه وأهل بيته وأصحابه في سبيل الجماعة، لذا فان الحزن والبكاء وغيرها من مراسيم العزاء كانت مطلباً جماعياً حث عليه أهل البيت عليهم السلام في روايات كثيرة.

وقد كشف البحث عن الوظائف الكامنة زيارة الأربعين ودورها في توجيه الملايين من معتنقي هذا الطقس الديني دون وعي سابق منهم، فالملايين من بقاع الأرض تسير بخطى ثابتة صوب القبر الشريف، يوحدهم هذا الطقس بغض النظر عن الموقع الجغرافي أو الطبقة الاجتماعية.

يستمد الطقس أهميته وفعاليته من كونه يرتبط بالقداسة والدين، فالفعل الديني فعل طقوسي بكل امتياز، وزيارة الأربعين أحاطها الشيعة بهالة قدسية على مستوى التمثلات والممارسات، فكل ما يقبع في الذاكرة الجمعية على مستوى التمثلات هو قدسية هذا الطقس والأجر والثواب العظيمين لمن زار هذا القبر الشريف، تدعمه النصوص المروية من أهل البيت عليهم السلام، وقد تمثل الشيعة هذا المتخيل وأعادوا إنتاجه على مستوى الممارسات كل عام بمراسيم وشعائر جسدت ما حمله المتخيل الجمعي

لمحبي الحسين وآل البيت عليهم السلام بشكل تطبيقي كل عام وبالطريقة نفسها.

تولّد زيارة الأربعين حالة من الفوران والغليان والمشاعر الجياشة لمعتنقي هذا الطقس مرجعها مأساة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، فقد وحدَّ هذا الطقس الملايين من الناس وجعلهم فرداً واحداً بعدما كانوا منفصلين منشغلين بحياتهم خارج هذا الطقس. فلم يعد هناك إيراني أو تركي أو هندي، بل ساهم هذا الطقس في توحيد الصفوف وتعبئة الوعي الجمعي لهم وإثارته، وإحساسهم بهويتهم التي لم يكونوا يستشعرونها خارج هذا الطقس، يتجسد ذلك في اجتماعهم في المواكب والتراتيل الدينية والأهازيج الشعبية، فضلاً عن توحدهم في لون الحداد ورفع الأعلام، وبهذا تختفي الفوراق الطبقية والعرقية والحدود الجغرافية.

إن زيارة الأربعين طقس سنوي يتكرر كل عام في الوقت عينه، هذا التكرار يعد بمثابة التأسيس لهذا الطقس، فتكرار الإتيان بهذا الشعائر على هذه الطريقة يساهم في ترسيخ المعتقد على مستوى التمثلات والتصورات والعودة إلى الجذور والأصول كمحطات يتزود بها معتنق الطقس بشحنات رمزية ذهنية تتجسد في ممارسات أخلاقية نبيلة تعم المجتمع. وبلا شك أن له فوائد قيمية تتبناها الجماعات الناشئة في هذا الطقس، إذ يتيح لهم التطبع منذ الصغر على هذا الطقس الديني وعلى منظومة القيم السامية التي يحملها، فأهل البيت عليهم السلام منظومة قيمة متكاملة يتيح التكرار السنوي لهذا الطقس على تدريب الناشئة من معتنقيه عليها، وعلى مفاهيم التضحية والعدل والولاء للمعتقد الديني وغير ذلك.

الهوامش

(١) ينظر: الطقوس وجبروت الرموز، قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول، منصف المحواشي، مجلة إنسانيات، المجلة الجزائرية في الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، ع/ ٤٩، ٢٠١٠، ٣.

(٢) القصيدة العربية وطقوس العبور، دراسة في البنية النموذجية، د. سوزات ستيتكيفتش، مجلة المجمع العلمي بدمشق، مج/ ٦٠، ج١، كانون الثاني ١٩٨٥، ٥٨.

(٣) ينظر: الطقوس وجبروت الرموز، ٣.

(٤) ينظر: موسوعة شرح المصطلحات النفسية، لطفي الشربيني، ٣١٩.

(٥) ينظر: الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد، الاستاذ الشيخ محمد السّند، ٤٨-٥٠.

(٦) ينظر: المعجم الوسيط، مادة «الطقس »، والمعجم الأدبي، مادة «طقس».

(٧) ينظر: الطقوس وجبروت الرموز، ٤.

(٨) ينظر: المرجع نفسه، ٤.

(٩) ينظر: تراجيديا كربلاء، سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، ابراهيم الحيدري، ٨٣.

(١٠) ينظر: الطقوس وجبروت الرموز، ٤.

(١١) فان جيب: عالم فرنسي من اصل هولندي قدم اسهاما متميزا لعلم الفولكلور والانثولوجيا في فرنسا، ولكن شهرته الاساسية يدين بها لدراسته عن شعائر الانتقال أو العبور، ١٩٠٩، التي كان لها تاثير كبير في الدراسات الانثروبولوجية. ينظر: موسوعة علم الانسان (المفاهيم والمصطلحات الانثروبولوجية)، شارلوت سيمور-سميث، ترجمة: مجموعة من اساتذة على الاجتماع، ٤١٠-٤١١.

(١٢) ينظر: قاموس الانثروبولوجيا، د. شاكر مصطفى سليم، ٨٢٤-٨٢٥. وينظر: التاريخ الجديد، اشراف: جاك لوغوف، ترجمة وتقديم: محمد طاهر المنصوري، ٤٤١-٤٤٢. و القصيدة العربية وطقوس العبور، ٥٩.

(١٣) القصيدة العربية وطقوس العبور، ٥٩.

(١٤) ينظر: قاموس الانثروبولوجيا، ٨٢٥. وينظر: معجم الانثولوجيا والانثروبولوجيا، بيار بونت وميشار ايزار، ترجمة: مصباح الصمد، ٦٣٤-٦٣٥.

(١٥) ينظر: العنف والمقدس، رينيه جيرار، ترجمة: سميرة ريشا، ٤٧٩.

(١٦) ينظر: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، د. عمر بن عبد العزيز السيف، ٤٠.

(١٧) ينظر: الاختلاف في الثقافة العربية الاسلامية، آمال قرامي، ٥٢١.

(١٨) ينظر: الشعائر الحسينية في العصرين الأموي والعباسي، محمد باقر موسى جعفر، ١٢٥.

(١٩) تاريخ الطبري، ٣/ ٣١٦. مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ١١٣.

(٢٠) ينظر: علل الشرائع، الصدوق، ٢٢٥.

(٢١) ينظر: الشعائر الحسينية في العصرين الأموي والعباسي، ١٢٦-١٢٧.

(٢٢) الإحداد في اللغة: المنع، وفي الاصطلاح: ان تجتنب المراة المحتدة المتوفى عنها زوجها كل ما يدعو الى نكاحها ورغبة الآخرين فيها من طيب وكحل ولبس وغير ذلك. ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ٢٣٩.

(٢٣) ينظر: تطور طقوس الحداد الشيعية في العراق الحديث، طقوس زيارة الاربعين، فرج الخطاب، بحث منشور في مجلة الكوفة، السنة ٢، ربيع ٢٠١٣، ١٦٨.

(٢٤) ينظر: تراجيديا كربلاء، ٩٦.

(٢٥) ينظر: تطور طقوس الحداد الشيعية، ١٦٩- ١٧٠.

(٢٦) ينظر: احياء علوم الدين، للغزالي، ١٨٢٧.

(٢٧) ينظر: تطور طقوس الحداد الشيعية، ١٧٢.

(٢٨) ينظر: تراجيديا كربلاء، ٩٦.

(٢٩) كامل الزيارات، جعفر بن قولويه القمي،، ٢٠١-٢٠٢.

(٣٠) ينظر: تراجيديا كربلاء، ٣٠٨.

(٣١) ينظر: تطور طقوس الحداد الشيعية، ١٧٤.

(٣٢) ينظر:احياء علوم الدين، ١٨٧٢.

(٣٣) مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مج٩، ٤٢١.

(٣٤) ينظر: احياء علوم الدين، ١٨٧٢.

(٣٥) سنن الدارقطني، علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مج٢، ٥٣١.

(٣٦) ينظر: تراجيديا كربلاء، ١٣١.

(٣٧) ينظر: اللهوف على قتلى الطفوف، علي بن موسى بن طاووس، ٢٢٥.

(٣٨) ينظر: تطور طقوس الحداد الشيعية، ١٧٦.

(٣٩) ينظر: تراجيديا كربلاء، ١٣٧.

(٤٠) مقتل الحسين، للخوارزمي، ١/ ٢٧٣.

(٤١) ينظر: تطور طقوس الحداد الشيعية، ١٧٩-١٨٠.

(٤٢) ينظر: تراجيديا كربلاء، ٣٠٧-٣٣٨. وينظر: تطور طقوس الحداد الشيعية، ١٦٨.

(٤٣) ينظر: قاموس الانثروبولوجيا، ٣٧٦.

(٤٤) ينظر: معجم الانثولوجيا والانثروبولوجيا، ٩٩٨.

(٤٥) ينظر: قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور،

إيكه هولتكراس، ترجمة: د. محمد الجوهري، د. حسن الشامي، ٣٦٦.

(٤٦) قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور، ٣٦٧.

(٤٧) المرجع نفسه، ٣٦٩.

(٤٨) ينظر: قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور، ٣٧٠.

(٤٩) قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور، ٣٧٠.

(٥٠) ينظر: قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور، ٣٧٢.

(٥١) ينظر: المرجع نفسه، ٣٧٢-٣٧٣.

(٥٢) ينظر: المرجع نفسه، ٣٧٣.

(٥٣) ينظر: تاريخ التفكير الاجتماعي، د. عبد الهادي محمد والي، ٣٨٠.

(٥٤) ينظر: المرجع نفسه، ٣٨١-٣٨٢.

(٥٥) ينظر: المرجع نفسه، ٣٨٣. وينظر: قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور، ٣٧٠.

(٥٦) النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، أرفنج زاتيلن، ترجمة: د. محمود عودة وإبراهيم عثمان، ٢٦.

(٥٧) ينظر: انشطار المصطلح الاجتماعي، د. معن خليل عمر، ٨٠.

(٥٨) ينظر: تاريخ الفكر الاجتماعي، الرواد والاتجاهات المعاصرة، د. محمد علي محمد، ٤٦٠.

(٥٩) ينظر: انشطار المصطلح الاجتماعي، ٧٩-٨٠. كان البحث الانثروبولوجي يعتمد على التنظير كما هو الحال عن «مورغان» و«فرانسس بواس» أصبح امبريقيا تجريبيا، من أجل تطبيقه على مختلف ابحاثهم على المجتمعات البدائية بالخصوص. ينظر: مدخل عام في الانثروبولوجيا، مصطفى تيلوين، ١٠٢.

(٦٠) ينظر: الطقوس وجبروت الرموز، ٥.

(٦١) المرجع نفسه، ٥.

(٦٢) مقتل الحسين، ١/ ٢٧٣.

(٦٣) المزار، للمفيد، ٢٢٨.

(٦٤) فضل زيارة الحسين، الشجري، ٤٢-٤٣.

(٦٥) المصدر نفسه، ٦٤.

(٦٦) عبد الله بن عبيد الانباري، من أصحاب الصادق عليه السلام. ينظر: الرجال، الطوسي، ٢٣١.

(٦٧) كامل الزيارات، ٢٩٤.

(٦٨) فضل زيارة الحسين، ٦٨.

(٦٩) كامل الزيارات، ٣٦٣.

(٧٠) المزار، ٥٣.

(٧١) ينظر: الشعائر الحسينية في العصرين الاموي والعباسي، ٢٧٢-٢٧٣.

(٧٢) ثواب الأعمال، الصدوق، ٩١.

(٧٣) كامل الزيارات، ٢٥٧.

(٧٤) المصدر نفسه، ٢٥٣.

(٧٥) الطقوس وجبروت الرموز، ٦.

(٧٦) الطقوس وجبروت الرموز، ٥ -٦. يشير مصطلح «الأركتيب» مجموع البنى الجماعية الأولية الماثلة في اللاشعور الجمعي العميق وتعبر عن نفسها من خلال الأساطير والطقوس ومختلف الأنشطة الدينية والفنية التي ينجزها الناس سواء في شكل جماعي أو فردي. ينظر: الطقوس وجبروت الرموز، ٦، هامش (٢٤).

(٧٧) المرجع نفسه، ٧.

(٧٨) ينظر: المرجع نفسه، ٧.

(٧٩) المرجع نفسه، ٧.

(٨٠) ينظر: المرجع نفسه، ٨.

(٨١) ينظر: المرجع نفسه، ٨.

(٨٢) ينظر: تراجيديا كربلاء، ٨٣.

(٨٣) ينظر: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ٣٨.

(٨٤) ينظر: تراجيديا كربلاء، ٨٥.

(٨٥) ينظر: الطقوس وجبروت الرموز، ٩.

(٨٦) ينظر: العنف والمقدس، ٤٧٩.

(٨٧) مسند احمد بن حنبل، ٤/ ١٧٢.

(٨٨) ينظر: الطقوس وجبروت الرموز، ٥.

(٨٩) ينظر: المرجع نفسه، ٤.

(٩٠) ينظر: تراجيديا كربلاء، ٨٥.

المصادر والمراجع

١. إحياء علوم الدين، أبو حامد احمد بن محمد الغزالي، دار الكتب العلمية / بيروت، ط١، ١٩٨٦.

٢. الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، دراسة جندرية، آمال قرامي، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٧.

٣. انشطار المصطلح الاجتماعي، د. معن خليل عمر، مطابع التعليم العالي، بغداد، ط١، ١٩٩٠.

٤. بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، الأسطورة والرمز، د. عمر بن عبد العزيز السيف، دار الانتشار العربي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٩.

٥. تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، (ت٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦. تاريخ التفكير الاجتماعي، د. عبد الهادي محمد والي، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.

٧. التاريخ الجديد، إشراف: جاك لوغوف، ترجمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٧.

٨. تاريخ الفكر الاجتماعي، الرواد والاتجاهات المعاصرة، د. محمد علي محمد، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ط١، ١٩٨٧.

٩. تراجيديا كربلاء، سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، ابراهيم الحيدري، دار الساقي، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

١٠. تهذيب الاحكام، تحقيق: حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الاسلامية – طهران، ط٣، ١٩٧٠.

١١. ثواب الاعمال، الصدوق، تحقيق: محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم، ط٢.

١٢. رجال الطوسي، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت٤٦٠هـ)، تحقيق السيد محمد صادق آل بحر العلوم، المكتبة الحيدية، النجف الاشرف، ط١، ١٩٦١.

١٣. سنن الدارقطني، علي بن عمر الدارقطني، (ت٣٨٥هـ)، تحقيق: عادل احمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١.

١٤. الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد، محاضرات سماحة الاستاذ الشيخ محمد السّند، بقلم: رياض الموسوي، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء، ٢٠١١.

١٥. علل الشرائع، محمد بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٦.

١٦. العنف والمقدس، رينيه جيرار، ترجمة: سميرة

ريشا، مراجعة: د. جورج سليمان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

١٧. فضل زيارة الحسين عليه السلام، محمد بن علي بن الحسن العلوي الشجري، (ت٤٤٥هـ)، تحقيق: احمد الحسيني، مكتبة آية الله المرعشي العامة، قم المقدسة، ١٩٨٣.

١٨. قاموس الانثروبولوجيا، إنكليزي - عربي، د. شاكر مصطفى سليم، جامعة الكويت، ط١، ١٩٨١.

١٩. قاموس مصطلحات الإنثولوجيا والفولكلور، إيكه هولتكرانس، ترجمة: د. محمد الجوهري، د. حسن الشامي، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٢.

٢٠. كامل الزيارات، لأبي القاسم جعفر بن محمد القمي بن قولويه، (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق جواد الفيومي، مؤسسة نشر الفقاهة / إيران، ١٤١٧هـ.

٢١. اللهوف في قتلى الطفوف، علي بن موسى بن طاووس، (ت٦٦٤هـ)، تحقيق: الشيخ فارس تبريزيان الحسون، دار الأسوة، طهران، ١٩٩٢.

٢٢. مدخل عام في الأنثروبولوجيا، مصطفى تيلوين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١١.

٢٣. المزار، محمد بن النعمان العكبري المفيد، (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: محمد باقر الابطحي، دار المفيد- بيروت، ١٩٩٣.

٢٤. مسند احمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، (ت٢٤١هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

٢٥. المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.

٢٦. معجم الأنثولوجيا والأنتروبولوجيا، بيار بونت وميشار ايزار وآخرون، ترجمة وإشراف: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع «مجد»، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠١١.

٢٧. المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، مكتبة الشروق الدولية - مصر، ط٤، ٢٠٠٤.

٢٨. مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، (ت٣٥٦هـ)، تحقيق: احمد صقر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٩٩٨.

٢٩. مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الفكر - بيروت.

٣٠. مقتل الحسين، لأبي المؤيد الموفق بن احمد المكي الخوارزمي، (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق: العلامة الشيخ: محمد السماوي، تصحيح: دار أنوار الهدى، إيران - قم، ط١.

٣١. موسوعة شرح المصطلحات النفسية، لطفي الشربيني، تقديم: حسين عبد الرزاق الجزائري، دار النهضة العربية، بيروت، ط١،٢٠٠١.

٣٢. موسوعة علم الإنسان، المفاهيم والمصطلحات الانثروبولوجية، شارلوت سيمور- سميث، ترجمة: مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، مراجعة وإشراف: محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٩.

٣٣. النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، إرفنج زايتلن، ترجمة: د. محمد عودة، د. إبراهيم عثمان، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط١، ١٩٨٩.

البحوث والدراسات

١. تطور طقوس الحداد الشيعية في العراق الحديث، طقوس زيارة الأربعين، فرج الحطاب، مجلة الكوفة، السنة/ ٢، العدد/ ٢، ربيع ٢٠١٣.

٢. الطقوس وجبروت الرموز، قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول، منصف المحواشي، مجلة إنسانيات، المجلة الجزائرية في الانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، ع / ٤٩، السنة الرابعة عشرة، سبتمبر، ٢٠١٠.

٣. القصيدة العربية وطقوس العبور، دراسة في البنية النموذجية، د. سوزان ستيتكيفيتش، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج / ٦٠، ج/ ١، كانون الثاني، ١٩٨٥.